الملخص

هدفت الرواية إلى إظهار عيب المجتمع، وإبراز الخلل والعيب المتمثل في سلطة الرجل المطلقة على المرأة وتصويرها الكائن السلبي المنكسر المسلوب حقه، كما أظهرت الفروقات الشاسعة ما بين كلا من الثقافتين العربية الجانحة للقيود وكبح الحريات والثقافة الغربية المانحة الحرية لأفرادها، وهذا ما يظهر جليا في بطلة الرواية "فاطمة، صوفي"، ففاطمة هي الحاملة في داخلها آلام الماضي وانكسارها جسدياً ونفسياً، وهي أيضا "صوفي"، التي تعيش الحاضر من بعد أن خلعت سرابيل الماضي، من خلال الإجابة عن التساؤل التالي، اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، وقدو توصلت الدراسة إلى نتائج اهمها تركيز الرواية على العنف بمختلف أشكاله وألوانه وأيضا العنف الاجتماعي المختبئ بين طيات ثقافة المجتمع، تم تعنيف المرأة جسديا بطل الطرق، ولم يكن لها سبيل سوى الاستسلام، وقد ولد العنف لدى المرأة حالة من الفقدان للكيان والهوية ورغم محاولتها إثبات ذاتها في بيئة اكثر تحرراً إلا أن محاولتها كانت فاشلة وأكدت نسقاً ثقافيا ما يزال راسخا في عمق الثقافة أن المرأة لا تتعدى كونها جسد خلق للمتعة.

العنفُ والأنوثةُ المقموعة

في رواية الكافرة لعليّ بدر إنموذجًا

م.م علي حسن حبيب الكريطي كلية التربية / قسم اللغة العربية

جامعة الزهراء (عليها السلام) للبنات

ali.hassan@alzahraa.edu.iq

Abstract:

The novel aimed to expose the flaw in society and highlight the imbalance and defect represented by the absolute power of men over women, depicting them as negative, broken, and deprived beings. It also demonstrated the vast differences between the two cultures, the Arab culture that restricts and suppresses freedoms and the Western culture that grants freedom to its individuals.

This is evident in the novel's protagonist, Fatima/Sophie. Fatima carries within her the pain of her past and her physical and psychological fragility. She is also Sophie, who lives in the present after shedding the deception of

the past. The study adopted a descriptive-analytical approach and reached several results, the most important of which is the novel's focus on various forms and colors of violence, as well as the social violence hidden within the fabric of society's culture.

The woman was physically violated by the protagonist of the story, and she had no choice but to surrender. The violence led women to a state of loss of identity and despite her attempts to assert herself in a more liberated environment, her attempts were futile, confirming a cultural pattern deeply rooted in the culture that views women merely as objects of pleasure.

١ – المقدمة:

على الرغم من أن رواية "الكافرة"، لعلي بدر، تدور حول الإرهاب الديني إلا أنه لم يتناول موضوع الإرهاب من حيث حياة الإرهابيين والمعتقد ولم يتناول أسلوب تفسيرهم للنصوص القرآنية، فقد تميز بتقصي جذور الإرهاب الديني من خلال العنف الذكوري الممارس ضد المرأة في المجتمعات العربية، من خلال تقديم صورة المرأة المستلبة جسديا وفكريا، حتى من قبل دخول المتشددين، وذلك من خلال قصة فاطمة التي تعيش في قرية نائية سيطر عليها "تنظيم الدولة"، وأجبروها وأسرتها على خدمتهم ثم يُقتل والدها بعد قيامه بعملية انتحارية وكذلك زوجها، لأجل أن ينعم بالحوريات، فيقرر المتشددون تزويجها لعنصر من جماعتهم، إلا أنها تقرر الهروب واللجوء إلى اوروبا من خلال مساعدة أحد المهربين، الذي يغتصبها أثناء الرحلة، وعند وصولها إلى "بروكسل"، تقوم بتغيير هويتها ليصبح "صوفي"، محاولة الاندماج في المجتمع الجديد.

صدرت الرواية في عام (٢٠١٥)، اعتمدت الرواية في سرديتها للأحداث على طريقة الاسترجاع، حيث يتعرض صديق "فاطمة"، لحادث فيغيب عن الوعي لشهور، وتزوره بطلة الرواية باستمرار ومع كل زيارة تسترجع ذكرياتها مع رواية حياتها له، ربما يسمع أو يستعيد وعيه، وقد سلطت الضوء على الآثار المدمرة التي يتركها العنف على النساء.

ورواية الكافرة من الروايات الجريئة التي طرحت العديد من الأنساق الفكرية المترسبة تحت العديد من الأقنعة، من خلال واقع سياسي يموج بالعديد من الاضطرابات وهيمنة الطائفية، ظهرت بسببه جماعات ادعت التدين ونادت بعودة الخلافة، ومن خلال القوة استطاعت السيطرة على

أجزاء من العراق، فأفسدت القيم الأصيلة ليحل مكانها الفساد والهزيمة والتفكك وضعف البنية الاجتماعية، وأشاعت ثقافة بديلة.

وقد هدفت الرواية إلى إظهار عيب المجتمع، وإبراز الخلل والعيب المتمثل في سلطة الرجل المطلقة على المرأة وتصويرها الكائن السلبي المنكسر المسلوب حقه، كما أظهرت الفروقات الشاسعة ما بين كلا من الثقافتين العربية الجانحة للقيود وكبح الحريات والثقافة الغربية المانحة الحرية لأفرادها، وهذا ما يظهر جليا في بطلة الرواية "فاطمة، صوفي"، ففاطمة هي الحاملة في داخلها آلام الماضي وانكسارها جسدياً ونفسياً، وهي أيضا "صوفي"، التي تعيش الحاضر من بعد أن خلعت سرابيل الماضي.

يعد العنف هو أحد أكثر المشاكل التي تواجه المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث. ينتشر العنف في جميع أنحاء العالم، ويأخذ أشكالاً عديدة، منها العنف الجسدي، والعنف النفسي، والعنف الجنسي، يؤثر العنف على جميع أفراد المجتمع، ولكنه يؤثر بشكل خاص على النساء. النساء هن أكثر عرضة للعنف من الرجال، ويتعرضن لأشكال أكثر عنفاً. كما أن العنف يترك آثاراً مدمرة على النساء، سواء على المستوى الجسدي أو النفسي أو الاجتماعي، ومن الآثار المدمرة للعنف على النساء هو قمع الأنوثة. الأنوثة هي مجموعة من الصفات والخصائص التي ترتبط بالمرأة. تتمثل الأنوثة في القدرة على الحب والعطاء والرعاية، والشعور بالجمال والسعادة [١].

لذا جاءت رواية "الكافرة"، لتمثل واقعاً تموج فيه العديد من النماذج والشخصيات الاجتماعية عانت من التهميش، والفقر والواقع الثقافي المتخلف، بحكم هيمنة أفكار وتقاليد مهيمنة على المجتمع، كونت تجربة أدبية عراقية كبرت وتراكمت في بروكسيل ببلجيكا، من خلال التعبير عن التاريخ العراقي القديم والحديث، فعلي بدر في روايته، يكشف لنا تاريخاً أكثر فظاعة للمرأة المستباحة في الشرق الأوسط ليلمح أن المأساة الحقيقية لمن عذبوا ونكل بهم في الحروب أو تعرضوا إلى الاغتصاب والعنف تبدأ بعد نجاتهم حتى لو كان بحصولهم على حق اللجوء في أعتى أراض الحرية والديمقراطية الغربية. لأن اللاجئ الضحية لا يمكن أن يتخلص من ذاكرته المثخنة بالمحن والكوابيس، وهكذا ظلت صوفي طوال الرواية تؤكد توقد ذاكرتها وقدرتها على تذكر حتى تفاصيل التفاصيل من طفولتها.

لذا تأتي هذه لتحليل العلاقة بين العنف والأنوثة المقموعة في رواية الكافرة. تسعى الدراسة إلى الإجابة عن السؤال التالي:

١-١ أسئلة البحث:

تهدف الدراسة الحالية إلى الإجابة عن السؤال التالي:

ما هي العلاقة بين العنف والأنوثة المقموعة في رواية الكافرة لعلي بدر؟

فرضيات البحث:

١. العنف الذكوري يساهم في قمع الأنوثة.

٢. تعكس رواية الكافرة العلاقة بين العنف والأنوثة المقموعة.

١-٢ خلفية البحث:

لقد هيمن البعد الذكوري على التكوين الاجتماعي للفرد في مجتمعنا منذ زمن بعيد، حيث أن الرجل قد استأثر بتشكيل ماضينا وصناعة حاضرنا، فيما أذعنت المرأة لذلك مجبرة أو راضية في أغلب الأحيان. هذه الهيمنة الذكورية تتجلى بوضوح في استخداماتنا اللغوية تجاه كل من الرجل والمرأة، خاصة عند الحديث عن البطولات والشجاعة. " إن هذه الفوارق في تصوراتنا وسلوكياتنا المتعلقة بالتفرقة بين الجنسين تنبع من التغلغل العميق لمفاهيم المجتمع الأبوي وسيطرته على تفكيرنا وقراراتنا ومؤسساتنا وآدابنا وفنوننا بشكل واعٍ أو غير واعٍ "[٢].

تواجه المرأة في مجتمعنا أشكالًا متعددة من العنف الاجتماعي في علاقتها مع الرجل، وتتراوح هذه الأساليب بين الطاعة والاحترام من جهة، والمناقشة والرفض أو عدم الاحترام من جهة أخرى. تتأثر طبيعة هذه الأساليب بعوامل اجتماعية مختلفة مثل العمر، والمستوى التعليمي، والمنطقة السكنية، والدخل، والمهنة. إن العنف الذي تتعرض له المرأة ليس سوى مظهر من مظاهر علاقات القوى غير المتوازنة بين تكاليف ومردودات العلاقات بين الرجل والمرأة، وهو يعكس الفجوات العميقة في التوازن الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بين الجنسين، مما يؤثر سلبًا على مكانة المرأة ودورها في المجتمع ويعزز من هيمنة الأفكار التقليدية التي تكرس هذه الفجوات وتجعل من الصعب تحقيق المساواة الفعلية بين الجنسين[٣].

العلاقات غير المتكافئة بين الرجل والمرأة تستمر في مجتمعنا لأن المرأة هي التي تتحمل تكاليف العلاقة بشكل رئيسي. فهي غالبًا ما تخفي ما تتعرض له من عنف بهدف إرضاء المجتمع الذي يحملها المسؤولية وكأنها هي المقصرة. بهذا التصرف، تخدم المرأة رغبة المجتمع في التستر على هذه الظاهرة الاجتماعية المؤلمة. يحمل المجتمع صورة متحيزة تجاه المرأة، حيث يُنظر إليها على أنها الطرف الأضعف والمقصّر في العلاقات. هذه الصورة المتحيزة لن تتغير إلا بتغيير بنية المجتمع بشكل شامل، وإعادة النظر في دور المرأة بوصفها عضواً فاعلاً ومؤثراً فيه. يجب أن يُفسح المجال للمرأة للتعبير عن رأيها بحرية ومواجهة وحل المشاكل التي

تواجهها بفعالية. لتحقيق ذلك، من الضروري تعزيز الوعي بأهمية المساواة بين الجنسين، ودعم المرأة في مختلف المجالات، بدءًا من التعليم والتوظيف، وصـــولًا إلى المشـــاركة في اتخاذ القرارات الســـياســـية والاجتماعية. كما يجب تعزيز القوانين التي تحمي حقوق المرأة وتكافح العنف ضـدها، وتغيير الثقافات الاجتماعية التي تكرس الفجوة بين الجنسـين، وذلك لضـمان بيئة آمنة وعادلة تُعزز من دور المرأة في المجتمع وتمكنها من الإسهام بشكل فعال في تطويره .[٤]

العنف (Violence) (يُعرّف لغويًا على أنه الشـدة والقسـوة في القول والفعل، أو أنه اسـتخدام القوة بطرق غير مشـروعة أو مخالفة للقانون)[٥]. بمعنى آخر، العنف هو ممارسـة القوة بشـكل يتجاوز الحدود المقبولة قانونياً وأخلاقياً، سـواء كان ذلك في سـياق العلاقات الشـخصـية أو في السياقات الاجتماعية والسياسية. يتضمن العنف أشكالًا متعددة، منها الجسدي والنفسي واللفظي، وكلها تهدف إلى فرض السـيطرة والإيذاء. من هذا المنطلق، يمكن اعتبار العنف وسـيلة لتحقيق أهداف معينة من خلال انتهاك حقوق الآخرين والتعدي على حرياتهم وكرامتهم. ولذا، يجب أن يكون هناك وعي مجتمعي واسـع حول خطورة العنف وآثاره السـلبية على الأفراد والمجتمعات، وضرورة اتخاذ تدابير قانونية واجتماعية صارمة للحد منه ومنعه بكل أشكاله.

وكلمة عنف مأخوذة من اللغة اللاتينية (Violential) التي تعني القوة والخشـــونة والانتهاك والمخالفة للقانون، وترتبط هذه الكلمة بكلمة (Vis) التي تعني القوة والبأس، ويعرف العنف من الناحية القانونية بأنه الاســـتخدام غير القانوني لوســـائل القهر المادي من أجل تحقيق أهداف شخصية فردية أو اجتماعية[٦].

و على رغم التطور الكبير الذي شهده العالم اليوم في كافة المجالات الحياتية، إلا أن وضع المرأة في المجتمع العربي والعراقي بوجه خاص ما زال يتسم بعدم المساواة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين النساء، حيث ما زالت الرؤية المسيطرة بخصوص قصور المرأة ودونيتها وضرورة قوامة الرجل عليها مهما بلغت من مكانة علمية وفكرية، من خلال ما تحاول السلطات المشبعة بالذكورية المفرطة تمريره، وإصرار المجتمع الأبوي القبلي على فكرة ملكية الرجل للمرأة والقدرة على التصرف بمصيرها[٧].

وقد ناقشت دراسة أحمد عبد الجبار، (٢٠٢٠) والتي كانت بعنوان (أساليب بناء الجملة السردية في روايات الإرهاب العراقية)، حيث تناولت دراسة مجموعة من الروايات العراقية المكتوبة ما بين العام (٢٠٠٥-٢٠١٧)، حيث أظهرت أن الإرهاب كان الثيمة الرئيسة لها، والمحفز على كتابتها مع عدم إغفال البعد الموضوعي للروايات متمثلا في الإرهاب وصوره وأشكاله، وتطرقت دراسة حسن مجيدي، زينب جفعر، (٢٠٢٢) والتي كانت بعنوان (نظرة اجتماعية لخلط الرواية

العراقية والعنف، رواية الكافرة لعلي بدر نموذجا)، للظروف السياسية والاجتماعية المتأزمة بالعراق، مع ذكر أنواع العنف بالرواية وكيفية تأثر أفراد المجتمع بهذا العنف، مع إبراز التأثير على الفرد العراقي من خلال الاغتراب وعدم المساواة بين الجنسين.

وفي لغة شفيفة تأتي رواية "الكافرة"، لعلي بدر لتدين العنف المسلط على المرأة، فلا تقول سوى الحقيقة، التي أصبحت يُسمع بها ونراها على الشاشات أيضا، تبدو هذه الرواية ضرورية في هذه اللحظة من نواحي كثيرة منها الانتباه إلى شخصية الضحية أو اللاجئ الناجي الذي قد يتحول إلى شخصية انتقامية اجرامية يصنعها الارهاب في فضاءات أخرى نتيجة ما لحقها من تشوهات نفسية بسبب ما تعرضت له من مآسي وعذابات محت وجهها الحقيقي الذي عل المنقذ أن يعمل على اعادته للضحية قبل أن يطلقها لمصيرها.

فمغادرة الفضاء الجحيمي لا يعني النجاة لأن الضحية قد تحول بانتكاستها الفضاء الحميمي إلى فضاء جحيمي آخر لتواصل اللعبة. وهذا ما تعكسه شخصية أدريان القادمة من ذاكرة الحرب الأهلية اللبنانية، تلك الشخصية التي تشي الرواية في قسمها الأخير بأنه الوجه الذكوري لصوفي فكلاهما ضحية العنف الديني والطائفي الذي ورطهما في عقيدة الانتقام والثأر. ليتسع مفهوم العنف الذكوري اليوم ليكون ذهنية متسلطة على الرجال والنساء على حد سواء(٨).

٢- منهج البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي لمناسبته وطبيعة البحث، حيث يتميز المنهج الوصفي التحليلي بخصائص عدة تجعله مناسبًا لدراسة طبيعة الدراسة منها:

الموضوعية: يسعى المنهج الوصفي التحليلي إلى وصف الظواهر الاجتماعية والسلوكية بشكل موضوعي، دون تدخل الباحث في النتائج.

القياس: يمكن استخدام المنهج الوصفي التحليلي في دراسة الظواهر الاجتماعية والسلوكية من خلال قياسها وتحليلها.

٣- مظاهر العنف والأنوثة المقموعة في رواية الكافرة:

يتحول الماضي في الرواية إلى كوابيس رهيبة، تعيشها شخصيات تجد نفسها معزولة في فضاءات غريبة عليها، ماضٍ يطبعه العنف ما ينفك يطاردها، ويدفعها إلى التخفي وراء هويات جديدة، والتنكر لأسمائها الحقيقية ولتاريخها وحياتها القديمة، فالرواية تقارب واقعاً مركباً: عنف طليق بلا هوية محددة يدمر الحياة وأسبابها، وفحولة متغطرسة في مقابل أنوثة مغتصبة، فضلًا عن شرق متخلف وغرب غير مكترث.

صوفي، تروي تاريخ العنف الموجه ضد المرأة بداية من سيرة "الأم"، وتكشف عن مجتمع ذكوري، فتروي لأدريان وهي تستعيد صوت امها ورجاءها الوحيد لزوجها ألا يوجه لها الضرب على وجهها وكأنها بذلك تستسلم لواقع العنف الذكوري فتهمس"لا تضرب على وجهي" وتردف" البنت نائمة، لا أريدها أن تسمع" ويصر الزوج المخمور أن تتركه يضربها على وجهها في حالة من النزق للعنف والايلام: "انزلي يديك، عن وجهك"، أنزلت يدها، ببطء، عن وجهها، ففاجأها، بضربة، لا تلين، على الأسنان. صرخت: آه، بألم حاد قادم من الأعماق، وبصرخة مكتومة، بينما انفجر الدم من فمها، وسار حنكها على الوسادة. لقد خشيت أن تطلق صرختها، لقد كتمتها. أعادتها؛ لتتكسر، في روحها، في ذاتها" (٩).

هكذا تصف لنا "صوفي" الفظاعة الذكورية، في أعلى تجلياتها عبر ممارسة حق العنف المادي كما تعتقد، مؤرخة بذلك تاريخ العنف الموجه ضد المرأة وجسدها لا لتبرئة المتشددين بل لكي تقول أن هذا العنف قد تربى قبل وصولهم بقرون ومهدوا له لكي يشتد فظاعة.

وارتباط المرأة بالضعف جعلها في مرتبة دونية أقل من الرجل، تقول صوفي، "أما في عائلتي فكانت أمي في أسفل هذه الطبقات، حين تتكلم مع أبي فإنها تدمدم بهمهمة غير مفهومة، صوتها يأتيك خفيضاً، كما لو كان قادماً من مكان ناء إن يطلب منها شيئا فإنها لن تقول له سوى تحت أمرك"(١٠).

ويبدو أن احتقار النساء وسلبهن أمر متوارث من الجد وصولا للأب في عائلة "فاطمة"، فوالدها لم يكن فقيراً أبدا بل كان ينتمي إلى لعائلة غنية مرموقة قبل أن يضيع والده تلك الثروة، تقول البطلة وهي تخبر صديقها فاقد الوعي عن جدها: "حاز على ثروة كبيرة، كميراث من والده الذي كان أحد كبار الملاك في المنطقة، وبما أنه أكبر شقيقاته الثلاث، فقد استولى على ثروتهن أيضا"(١١) .

تقول فاطمة: "إن الأمر شائع في هذه المناطق النائية أن يحوز الرجل على ثروات شقيقاته، ولكي تكتمل ملكيته تماماً، رفض تزويجهن، لئلا يطالبنه بالإرث فيما بعد، وبقين في داره مثل العبيد، يعملن ويسهرن على راحته"(١٢).

كما ارتبطت صورة المرأة في الرواية بالخوف والخضوع فقط لكونها أنثى، ففي حوار لفاطمة مع الأم حين تسألها عن سبب خوفها الدائم:

- لماذا أنت خائفة يا أمي.
- لأني امرأة.
- هكذا كان جوابها

- لماذا تخاف المرأة
- لا أعرف.....هي تخاف
- والرجل ألا يخاف [١٣] .

ومن المؤكد أن الثقافة عملت منذ القدم على إحداث فجوة بين الرجل والمرأة من خلال التنشئة الاجتماعية الفرقة، التي أعلت من شأن الذكورة على الأنوثة، فالرواية توضح أن التنشئة الاجتماعية هيئة الرجال لحب ألعاب السلطة وتهيء النساء لحب الرجال الذين يلعبونها، فالذكورية في الرواية منحت الذكر قبل إبصاره النور مطلوب منه إثبات مركزيته، وهمشت من دور المرأة، ومن خلال الحوار الذي دار بين فاطمة، ووالدتها نتبين الفكرة المترسخة في ذهن والدتها عن دونية المرأة.

ولا وجود لفكرة الحريات الشخصية، أو الرأي والرأي الآخر، فلا رأي يعلو على سلطة الإسلام السياسي الذي ابتدعه المسلحون، لذا فمشاهد التكفير والرجم والحكم بالردة كانت من المشاهد الأكثر دموية وعنفا في الرواية، ولعل مشهد رجم المرأة الشابة التي رفضت ارتداء النقاب فاتهموها بالزنى والكفر[١٤]، هو المشهد الأكثر رعبا، وهو السبب الحقيقي وراء اتخاذ فاطمة قرار التغيير بالفعل، والتحول من الإسلام للكفر لبشاعة ما رأت، وهذا ما يتضح من حوارها الخطير مع أمها بعد حدث رجم الكافرة مباشرة.

اه يا الهي ماذا حدث لكِ؟.. !أنت لا تشبهين ابنتي التي اعرفها أبدا ،ماذا جرى لكِ ؟الا تقولين لي !؟

كذا أنا كافرة ...سالت أمي هل الله عادل؟ هل هو رجل أم امرأة ؟

هو روح لا رجل ولا امرأة

لماذا نقول هو ولا نقول هي

أنَّه لا يصح أن نخاطب الله باسم امرأة، لأن المرأة أقل بكثير من الرجل..المرأة اقل ذكاء منه..

الرجل أفضل، والله خلق الرجل على صورته.

والمرأة خلقها الله على صورة من ؟ .... لم تجب.

ل يرجمون الرجل؟

لا، لانَّ المرأة هي التي تغوي الرجل، هي التي جعلته يأكل التفاحة ويخرج من الجنة.

انت قلت أنها غبية ،كيف استطاعت هذه الغبية أن تخدع الرجل الذكي؟ لم تجبني أمي كان علي أن أجد الجواب وحدي وأصل اليه[١٥].

هذا الحوار بين فاطمة / صوفي، والأم يؤكد على التنشئة الفارقة، والتي هي نتيجة ثقافة سعت وعملت جاهدة على تصغير وتهميش المرأة لدرجة أن آمنت بكونها ضعيفة وأنها أقل من الرجل.

٣-١ العنف ضد الأنثى وهي طفلة:

ينهض جسد فاطمة / صوفي في الرواية طرس كتابة لسيرة المرأة في مجتمع ذكوري يكشف عن توحشه وعدائيته للجسد الأنثوي ساعة تسقط الأنظمة والقوانين الرادعة فيعود إلى جاهليته الأولى في ثوب التشدد الديني. ولم تكتف فاطمة/ صوفي بسرد قصتها إنما فاضت ذاكرتها بمن عرفت من إناث أخروات فعادة بها تلك الذاكرة إلى صديقة طفولتها التي أجهز عليها أبوها بصخرة بعد أن علم أنها تعرضت للاغتصاب من أبن جارهم.

تسترجع فاطمة صديقة طفولتها التي أحبتها "جميلة"، وكيف تم اغتصابها على يد جارها، ثم ماتت على يد أبيها تقول البطلة: "قتلها أبوها بلا رحمة ولا شفقة هكذا ضربها بصخرة على رأسها فماتت قتلها لأن ابن جارهم اغتصبها، فعل فعلته معها وهرب، وبكل براءتها الطفولية راحت تسأل امها عن الدم الذي سال بين ساقيها فلطمت أمها خدها، وأخبرت والدها فأراد الأب أن يقضي على عارها بموتها(١٦).

تظهر هنا ثقافة أولوية الذكورة على الأنوثة فالمرأة إذا اغتصبت تُقتل أو تعنف بشكل أو بآخر خلافاً للرجل، وفي موضع آخر نجد "فاطمة" في طفولتها ومعاناتها من العنف الذكوري المتمثل في الصغار والكبار، تقول: "كنت أتعرض على الدوام للمضايقة من الأولاد الأكبر سنا، كانوا يضربونني من دون سبب، يشتمونني أو يسرقون ما تجلبه لي امي من السوق، فكنت احيانا أحتمي ببعض الكبار، فوجدتهم الأسوأ فبحجة حمايتي كانوا يتحرشون بي...كنت أتفادى كل هذا الظلم، وهذه العدوانية القادمة، من الشارع، كنت أهرب إل أجواء المنزل التي لا احبها(١٧).

إذ تتبدى البطلة "فاطمة "في طفولتها بحالة رعب وخوف بشكل دائم من كل شيء مما يشي بالأنساق الثقافية المُحيطة التي تتحكم في إنتاج وعيها وحركة سلوكها وكشف ما يعتلج في أعماق الذات الأنثوية من ردود أفعال مكبوتة تجاه الضغط الاجتماعي الذي ترزح تحت وطأته عبر تقنية الاسترجاع والتذكر لطفولة بائسة.

كما يعبر الكتاب عن العنف النفسي الموجه للمرأة في صورة الطفلة "فاطمة" ويعبر الكاتب هنا عن العنف النفسي الموجه للطفلة، في وصف طفولة فاطمة، تقول: غير ان امي لم تكن تعن بي أبدا في الليل، حين ألتصق بها، تبعدني بيدها كما لو أنها تدفع حائطا سيسقط عليها(١٨).

فإهمال والد فاطمة ووالدتها شكل من أشكال السيطرة والتفريط عن أعمال السلطة، فجو المنزل عنيف وغير آمن، وهي طفلة هاربة من هذه الظروف والعلاقات العاطفية، تقول: لم أحب منزلنا وهذا ما جعلني اتعلق كثيرا بأمي فكنت أهرب منه إليها(١٩).

وتشير صوفيا أيضا وتشرح طفولتها والاكتئاب الذي تعاني منه والدتها كشخص فرضت عليه أدوار ليس لديه الإرادة للقيام بها تقول: "أمي لا تحب المزاح أبدا،لأنها تكرهه، امي لا تحب الضحك لم أرها يوما ضاحكة، كانت تسمي المزاح والضحك سفاهة، كانت تنهرني، لم تكن تقبل أن أفعل هذا أبدا، أمي حزينة دائما، الباكية أبدا، شاكية من كل شيء(٢٠).

أما النظرة التي تختزل جسد المرأة بوصفه علامة للشرف القبلي فيمثله الحوار الذي دار بين فاطمة المرأة: ووالدها، وأمره لها بارتداء النقاب أمامه قال لي هي بكارتها، هذه هي التحذيرات المحرمة التي أراد أبي أن ينقلها لي هذا اليوم، واضاف إن فقدت بكارتها فقدت حياتها .تهديد لكن؛ الحق أقول شعرت تلك اللحظة على الرغم من حداثة سني، أنَّ والدي لا يتحدث عن غشاء بين فخذي، انما يتحدث عن جوهرة موجودة هناك، عن ماسة، وضعها الله لاختبارنا. فليس هناك سوى رجل واحد في الكون له الحق في أن يقتلعها، لنفسه، علينا أن لا نفقدها قبل مجيئه، وإلا سنفقد الأرض والسماء ايضا.

- هل هذا هو العدل الإلهي يا أبي؟ وماذا سيفقد الرجل؟
- لا شيء
- كيف؟
- هو رجل ،ثم استدرك وقال: ولكننا سنفقد شرفنا
- لكنه جسدي..
- أنت لا تملكين, ليس لك

عيناه غائرتان مثل نقبين في الأرض، شعرت تلك اللحظة بأنَّه يسحقني، فجسدي الذي لا يؤلم أحدا غيري يتبخر ويتحول إلى شرف الرجال المحيطين بي ،كنت أنظر بينما هو جامد من دون عاطفة ينظر أمامه، وأنا أفكر بجسدي الذي تحول إلى غيري، الجسد الذي إن لم أحافظ عليه ،سأسحق بأقدام الرجال، ثمنا وعقابا لتدنيسه.لم يسأل أبي نفسه كيف يمكن لشرف الرجال أن يكون بين فخذي، أخري وأبول عليه كل يوم.لا يهم ولكن عليَّ أن لا افقده، عليَّ أن أحافظ على الماسة البراقة التي سيستخرجها الفارس بقضيبه(٢١).

هذا الحوار الخطير يدل على صدق فرضيتنا بأنَّ شخصية فاطمة ما هي إلا صوت الروائي الذي اتخذ من المرأة قناعا لتقويض المركزيات الفكرية التي تمثل قناعات المجتمع القارة، فطبيعة الحوار لا ينسجم مع فكر طفلة قروية حديثة العهد بالشباب، لاسيما بمناقشتها لفكرة العدالة الإلهية بين الرجل والمرأة، وكذلك سخريتها وتهكمها من قصور تفكير والدها– الذي يمثل المنظومة الذكورية -بحصر شرف الرجل بمكان البول والغائط !!وهو على عادته وظف الباروديا في تقويض تلك الأفكار وبيان تهافتها.

ولأنَّ العنف الذكوري يختزل مفهوم المرأة بوصفها جسدا ،نجد أن ثقافة غياب الحب هي عشت في زمن شديد » الثقافة الرائجة في مجتمع المدينة القسوة لا تكتسب فيه القوة إلا بالعنف والوهم، أما الحب؛ فهو شيء نادر، لا أحد يقترب منه، لأنَّه يقود إلى الموت، لقد عشنا في ظل المحنة محرومين من الحب ...لقد كان العوز الى الحب كبيرا جدا، فقد غدت عواطف الناس مثل صخور، لأنَّهن فصلوا الرجال عن النساء بسور من حديد، حتى وجد الرجال العزاب، ضالتهم بمضاجعة الحيوانات كالحمير والبقر(٢٢).

٣-٢ العنف ضد الأنثى "المرأة":

نشأت فاطمة في بيئة تقتل النساء وتغتصبهن وتعنفهن، بكل الأشكال وفي كل الأماكن في السوق، في البيت، فهي لم تسلم من الغريب أو الجار أو الزوج، تتذكر فاطمة المعاملة الوحشية التي عانت منها والدتها من قبل زوجها الذي تزوجته بعد والدها، تقول: فجرها بيد خشنة مشققة وأنزل قبضته الأخرى على وجهها بقوة فسال الدم من أنفها، عاهرة أنتِ عاهرة، قولي أنكِ عاهرة، لن أتركك حتى تقولي أنكِ عاهرة(٢٣).

هنا يظهر العنف ضد كل ما هو انثوي وقد صور الكاتب أحداث العنف التي طالت النساء وتكفير الأنثى في وطن استحوذ الارهابيون على كل شيء فيه، تقول: مدينة اجتاحها داء كبير يا صديقي لا قانون فيها ولا نظام، بلد مقفر آخذ بفقدان هويته يجتاحه الصحراويون، وجيرانه، المتوحشون، بدل يخوض المسلحون فيه أعتى الصراعات المسلحة لقد اوقفوا العمل وشوهوا ديانتنا بشعوذاتهم الشيطانية(٢٤).

لقد اتصف واقع المدينة قبل ظهور المتشددين بمجموعة من المركزيات الفكرية الفاسدة التي تمثل الواقع السلبي للمجتمع، من مثل سيادة صورة العنف في المنظومة الفكرية للمجتمع الذكوري، والمكون الأهم في تجسيد هذه الصورة هو المرأة، إذ قوض الروائي المفاهيم الاستعلائية في المجتمع الذكوري التي تنظر إلى المرأة نظرة دونية تختزل كينونتها في الجسد الذي يعد معيارا

للرغبة الجنسية، ومعيارا للشرف القبلي فحسب، وهذا مثل بأكثر من قصة ،منها قصة أم فاطمة مع والدها أولا، وزوجها الثاني راضي السكير ثانيا، ،لتمثل الحكايتين واقع المرأة المقهورة والضعيفة وهي تواجه حياة الاهانة والضرب والتعسف من لدن سلطة الزوج ليس لشيء سوى لأنها امرأة شرقية تنتمي إلى منظومة اجتماعية فكرية بائسة حللت للرجل فرض سيطرته بالضرب وفي ظل بشاعة وقتامة الوضع العام تحولت المرأة إلى مجرد سلعة يتم تداولها وبيعها فتم انتهاك حرمتها تصف فاطمة المرأة التي تعيش على هامش الحياة داخل مدينتها من خلال وصف مقر إقامة الجماعات الإرهابية والمعاملة اللاإنسانية لهن، تقول: كانت هذه الغرف تكبر بالنساء فما أن يرى المسلحون أحدا له زوجة جميلة حتى يتهموه بالكفر والردة بعدها يتم قتله ويحملون زوجته إلى المنزل الكبير لينام معها أحد المسلحين ثم يبيعها للآخر(٢٥).

والذي نلاحظه هنا أن كل مظاهر العنف الذي تعرضت له المرأة

وفي مشهد الرجم للمرأة تصور الساردة مشهد رجم هذه الذات المنكسرة وسط قهقهات تعالى من قبل الراجمين: "ترفس بأقدامها على الأرض لم تكن قادرة على أن تتلقى الضربات عن وجهها أو رأسها فيداها موثوقتان، كان الضحك يتعالى وهم يمعنون في ضربها.

- تتساءل فاطمة الصغيرة: عن إمكانية تكفير الرجل ورجمه هو الآخر.
- هل يرجمون الرجل....؟ سألتها. لا.
- لماذا؟
- لأن المرأة هي التي تغوي الرجل هي التي جعلته يأكل التفاحة ويخرج من الجنة(٢٦).

وتختم فاطمة رحلة المرأة مع العنف في وطنها باغتصابها من قبل مهربها تقول: "شعرت أن المهرب ينظرني بعينين مختلفتين أشعرتني بالخوف ثم بدأ يتقرب نحوي بشكل حاد ووقح، ثم بدأ يمد يده بصورة فجة حاولت الابتعاد، ولكن أين أبتعد"(٢٧).

ولا يقف البعد الفكري لفاطمة عند حدود التأمل والسخط والرفض الآيديلوجي بل تعداه إلى حدود الإنجاز على مستوى الفعل لتتخذ قرارا بالهرب من هذا الواقع الذي يغتال الحريات إلى عالم أرحب، لذا كان حدث هربها إلى أوربا بعد موت والدتها، ممثلا للعدمية الوجودية التي تؤمن بحرية الانسان، وهذا ما فعلته فاطمة بعينة حين قررت اعلان الكفر والبحث بحرية لمعرفة حقيقة الذات والهوية، على وفق النظرة المادية لا الميتافيزيقية.

وهذا ما نلمسه من خلال مرحلة تحولها إلى صوفي ففاطمة التي هربت من الشرق إلى الغرب لم تتحول بشكل مفاجئ إلى صوفي بل مرت بصراعات مريرة وهي تبحث عن كينونتها الأنثوية الضائعة والمغيبة، حتى وجدت ضالتها بتغيير هويتها الشرقية ممثلة باسمها وعرقها ودينها

بوصفها لاجئة، إلى هوية غربية على صعيد الفكر والجسد، وهذا ما أعاد لها كرامتها المسلوبة بوصفها لاجئة، وهويتها الضائعة بوصفها أنثى، ومن هنا نجد أنَّ العلاقات الجنسية التي انهمكت فيها صوفي ما هي إلا علامة سيميائية مهمة تبين فكرة الثأر للانتصار على الفكر الذكوري الذي قبعت تحت سيطرته سنينا حين قال لي زوجي قبل طوال، تقول مخاطبة لأدريان: "موته إنَّ سبعين حورية بانتظاره في الفردوس شعرت بإذلال كبير.وحين وصلت إلى أوربا، قررت أن أنام مع سبعين رجلا، أجرهم جراً إلى فراشي، كنت أريد أن أرى الرغبة المتولدة من حب عابر، أو من اعجاب جسدي ما، كنت أبحث عن أي جسد.مثل اكتشاف قارة جديدة، اكتشاف عالم لم أكن أعرفه. هو نوع من التصالح مع جسدي الذي أخفيته وخشيته وأزلته، إنَّه إعلان عن حياة، عن روح جديدة كانت تتولد لدي.أعرف أنك لن تفهم هذا ولا تستوعبه.لكن ماذا أصنع؟ لم تكن حياتي سوية مثل الآخرين[٢٨].

لقد سطرت الرواية صورتين للمرأة الأولى صورة المرأة المعنفة المستسلمة والخاضعة لعنف وسلطة الرجل ممثلة بالشخصيات الأنثوية المتواجدة في القرية التي سيطر عليها المتشددون، أما الثانية فهي صورة المرأة المواجهة الراغبة في إثبات ذاتها وتحرير جسدها ممثلة بالشخصية المحورية (فاطمة/ صوفي) حيث رفضت تزويجها بأحد الرجال المتشددين وقررت الهرب لخارج العراق.

وبعد أن أثبتت صوفي لذاتها كهامش من خلال إيجاد عمل محترم وراق للعيش تتخذ قرار تغيير هويتها العربية الإسلامية وقطع كل صلة بالماضي وجوره والتحول لمواطنة بلجيكية تقول: "قررت أن أغير هويتي أن أغير حياتي برمتها الشيء الأول الذي قررت تغييره هو اسمي لم أعد فاطمة العربية إنما صوفي البلجيكية"[٢٩] .

ثم تسعى للانتقام للجسد وتعطي نفسها حرية التصرف فيه، فما كان مغطى بالسواد في قريتها تحول إلى لعبة وهواية، فصورة الرجل السلبية والعنف الذي قام به، للم تخرج من رأسها، فهو ينظر للمرأة أنها خادمة وجسد خلق لتلبية حاجاته الجنسية، وتوفير سبل الراحة له، "هنا يقف الرجل خلف قهر المرأة متخذا كل احتياطاته في النظام الأبوي لحماية ممتلكاته دافعا المرأة إلى البقاء داخل المنزل ومحملا إياها مسؤولية الحفاظ على النسل"[٣٠].

"وتكتشف صوفي أن أدريان الرجل الحنون، الرجل الرومانسي الذي يحمل عن النساء في روحه وفي عقله أجمل صورة" [٣١]. هو من أصل عربي لبناني فتشعر بالخيبة وتدرك انها كانت مجرد جسد للمتعة بدون روح، فالتخلي عن الهوية والتاريخ لم يجعل منها ذاتا وكيانا يحظى باحترام الرجل بل اوقعها مرة اخرى في شباك الرجل الغربي تقول: "كنت جسداً ...جسداً عبروا عليه إل

نزواتهم إلى جنائنهم وجحيمهم عبروا عليه إلى آلهتهم وقناعاتهم إلى فلسفاتهم وهذيانهم إلى شرقهم وغربهم، أنا تمثال من الرمل في الشرق أو تمثال من الثلج في الغرب أنا تمثال بلا ملامح(٣٢).

الخاتمة

لابد لنا من الإشارة إلى أن كتاب الرواية يسلكون طريقين في اختيار عنوانات رواياتهم هما: الاستعانة بعنوان فرعي في الرواية لجعلها العنوان الرئيس، وأما أن تكون احدث أكثر تطورا من الجانب الفني، أو أشهرها، أو أكثرها ذيوعا، أو أن عنوانها يتسم بعنصر جمالي أو دلالي يؤهله لأن يكون عنوانا للرواية برمتها، والطريق الثاني انصرافهم إلى عنوان آخر ينتزعونه من السياق العام ما فعله الروائي (علي بدر) عند اختياره عنوان (الكافرة) التي تميزت بازدواجية الشخصية، يرتبط العنف ضد المرأة ارتباطا وثيقا بعلاقات القوي غير المتكافئة بين الرجال والنساء والتمييز القائم على النوع الاجتماعي ويتفاعل معها، فالعنف ضد النساء هو نتيجة للتراكمات التأريخية غير المتساوية بين الرجال والنساء والتي ادت إلى الهيمنة والتمييز ضد النساء من قبل الرجال وإلى منع التقدم الكامل للمرأة

لقد تميزت الرواية بطرحها الجميل والواضح ، إذ استعمل الروائي اسلوب السهل الممتنع لكي يضمن وضوحها وقبولها لدى جميع أصناف المجتمع العراقي .

أراد الروائي من روايته أن تكون مرآة للمجتمع العراقي المتطور، والمتحضر، ورفع قيمة شخصيته الروائية (فاطمة) العفيفة التي انحرفت بسبب ردة فعلها تجاه زوجها الذي شارك في عملية انتحارية ظالمة، وتركها فريسة لبعض المجرمين، والقتلة واللصوص التي هي - بحسب تصوره- نسخة طبق الأصل، أو شبيهة بالمرأة العراقية الموجودة في الواقع.

لقد ركزت الرواية على العنف بمختلف أشكاله وألوانه وأيضا العنف الاجتماعي المختبئ بين طيات ثقافة المجتمع، تم تعنيف المرأة جسديا بكل الطرق، ولم يكن لها سبيل سوى الاستسلام، وقد وَلد العنف لدى المرأة حالة من الفقدان للكيان والهوية ورغم محاولتها إثبات ذاتها في بيئة أكثر تحرراً إلا أن محاولتها كانت فاشلة وأكدت نسقاً ثقافيا ما يزال راسخا في عمق الثقافة، أن المرأة لا تتعدى كونها جسد خلق للمتعة.

فرواية الكافرة تعد صرخة للمرأة العربية التي شربت كأس الألم مرارا عبر سنوات عِجاف طوال قضتها ما بين حروب وتشريد وعبث بينونتها وتنتمي الرواية إلى أدبيات ما الحداثة، و"بعد" ما بعد الحداثة عبر تقنيتها السردية والأفكار العميقة والصراع العنيف الذي يجعل أبطالها يسيرون على حافة المأساة وهم يسقطون في غياهب التحولات السلبية التي اغتالت شرعية حيواتهم

قائمة الهوامش

(١) صوفيه السحيري، الجسد والمجتمع، دراسة انثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد :٦٢.

(٢) بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني ، ٢٠٠٩ : ١٦ .

(٣) سهيلة محمود، العنف ضد المرأة، ٢٠٠٥ : ٨٢ .

(٤) فطيمة الزهرة بايزيد، الكتابة الروائية النسوية العربية بين سلطة المرجع وحرية المتخيل، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة العقيد لخضر، الجزائر، ٢٠١٢: ٦٩ .

(٥) ابن منظور، لسان العرب : ١٨٢ .

(٦) حبيلة الشريف، الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة ، ٢٠١٠ :٢٤ .

(٧) فطيمة الزهرة بايزيد، الكتابة الروائية النسوية العربية بين سلطة المرجع وحرية المتخيل، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة العقيد لخضر، الجزائر، ٢٠١٢ : ٦٩ .

(٨) حبيلة الشريف، الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة ، ٢٠١٠ : ١١

(٩) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٤ .

(١٠) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٦٣ .

(١١) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٦٤ .

(١٢) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٦٤ .

(١٣) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٦٢ .

(١٤) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٤٠ .

(١٥) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٤٧-٤٨ .

(١٦) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١١ .

(١٧) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٤٠ .

(١٨) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٧ .

(١٩) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٧ .

(٢٠) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٨ .

(٢١) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٦٩-٧٠ .

(٢٢) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٢٧-٢٨ .

(٢٣) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٣ .

(٢٤)علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٩١ .

(٢٥) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٩٥ .

(٢٦)علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٤٩ .

(٢٧) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٤٩ .

(٢٨) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ١٦٠ .

(٢٩) علي بدر ، الكافرة ،٢٠١٦ : ١٧٤ .

(٣٠)علي بدر ، الكافرة ،٢٠١٦ : ١٩٧ .

(٣١) علي بدر ، الكافرة ،٢٠١٦ : ٥٢ .

(٣٢) علي بدر ، الكافرة ، ٢٠١٦ : ٢١٨ .

المصادر

- ابن منظور، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٩٠
- أحمد عبد الجبار فاضل، أساليب بناء الجملة السردية في روايات الإرهاب العراقية، "٢٠٠٥-٢٠١٧"، بحث منشور، مجلة مداد الأدب، العدد٢٠، ٢٠٢٠.
- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩.
- حبيلة الشريف، الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ٢٠١٠
- حسن مجيدي، زينب جعفر، نظرة اجتماعية لخلط الرواية العراقية والعنف، رواية الكافرة لعلي بدر انموذجا، بحث منشور، مجلة دراسات الأدب المعاصر، العدد٥٥، ٢٠٢٢.
- سهيلة محمود، العنف ضد المرأة، دار المعتر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٠٥.
- صوفيه السحيري، الجسد والمجتمع، دراسة انثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، دار الانتشار العربي للتوزيع، ط١، لبنان، ٢٠٠٨.
- علي بدر، الكافرة، منشورات المتوسط، ط٢، العراق، ٢٠١٦.
- فطيمة الزهرة بايزيد، الكتابة الروائية النسوية العربية بين سلطة المرجع وحرية المتخيل، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة العقيد لخضر، الجزائر، ٢٠١٢.